عودة إلى الشيخ الخالدي

مجلس آخر من مجالسه

للدكتور عبد الوهاب عزام

حدثت قراء « الرسالة » قبلاً عن الشيخ الجليل العلامة خليل الخالدي ، وذكرت طرفاً من علمه بالكتب العربية ومؤلفيها ومواضعها من دور الكتب في البلاد الإسلامية كلها وفي أسبانيا

وقد سعدت بلقاء الشيخ مراراً من بعد في مصر والشام ووجدت معرفته بآثار دمشق مساجدها ومدارسها ومزاراتها ليست دون علمه بالكتب والمؤلفين

وقد شرّف الشيخ حلوان منذ حين فساق الحديث إلى الكتب فأفاد وأمتع . فجنيت من حديثه هذه الثمرات :

قال إني في حيرة من أمر هذا الشريف الإدريسي مؤلف نزهة المشتاق . أعجب من رجل شريف يدخل في خدمة ملك صقلية والحروب الصليبية مستعرة ، ويكتب للافرنج عن البلاد الإسلامية فيصف لهم ثروتها وطرقها ومياهها ، ويقول عن كنيسة المسيح : القبة الشريفة ، وعن صخرة بيت المقدس : الصخرة التي يعتقد فيها المسلمون

ولولا أني قرأت هذا الكلام في نسخة صحيحة نقلت عن نسخة بخط المؤلف وكانت في خزائن الموحدين — وهي اليوم في كتب السلطان محمود في استانبول — ما آخذت الرجل بهذا الكلام خشية أن يكون بريئاً منه

والإدريسي في كتابه عالة على الإصطخري وابن خرداذبة ، والهمذاني ، وابن حوقل ، وابن واضح

وسرنا في شعاب الحديث حتى ذكرنا ابن الأثير صاحب المثل السائر فقال : أديب كبير ولكنه ليس ثقة — والشيخ ينقد المؤلفين على طريقة المحدثين — قال : وقد طعن فيه الوزير القفطي وهو وزير عالم ثبت ، ومن المؤلفين غير الثقات الفتح ابن خاقان صاحب قلائد العقيان . طعن في ابن باجة بغير حق ، وابن باجة من أجل علماء الأندلس وفلاسفته ، وكان الفتح رجلاً يعيش في الخانات ، وقد جلده القاضي عياض في الخمر ، وقد مدح هو عياضاً قليلاً خوفاً منه

وعياض عالم كبير له كتاب المشارق الذي أثنى عليه ابن الصلاح في أبيات منها :

مشارق أنوار تجلّت بسبتة وذا عجب كون المشارق في الغرب

قلت : كان ابن الأثير معجباً بنفسه ولكن أدبه يشفع لهذا الإعجاب عندي

قال : ومن العلماء المعجَبين بأنفسهم الأتقاني الفقيه مؤلف غاية البيان شرح الهداية ، وله شروح على أصول الأخصيكثي . ومنهم الصفناقي ، وله شرح على أصول فخر الإسلام البزدوي وعلى الجامع الكبير . ومنهم عصام الدين وكتبه معروفة ولا سيما في بلاد الترك ، ولعل سبب هذا أن حفيده قدم إلى استنبول وأقام بها . وقد أهدى عصام الدين إلى السلطان سليمان القانوني حاشيته على تفسير البيضاوي المسماة « أنوار التنزيل »

وقد رأيت في مكتبة بني قرمان في قونية خط الأتقاني على كتاب الأصول للدبوسي ، وهو نسخة قديمة كتبت سنة ٤٧٥ ، ومن هذا الكتاب نسخة بخط الأتقاني في استنبول . ورأيت في هذه المكتبة من نفائس الكتب كتاب غريب الحديث لابن قتيبة الدينوري ، ما رأيته قط إلا فيها . والجزء الرابع من البخاري عليه خط الحافظ أبي الوقت السِّجزي ، وإليه وإلى أبي زيد المروزي تنتهي روايات البخاري

ورأيت في مكتبة جلال الدين الرومي في قونية كتاب التمهيد لعبد الشكور السالمي في العقائد ، وهو إمام كالماتريدي ونجم الدين النسفي . ورأيت في مكتبة صدر الدين القونوي كتاب الفتوحات المكية بخط المؤلف في سبعة وثلاثين جزءاً ، وفوائد ابن حبّان في الحديث بخط ابن العربي ، ونصوص الحكم بخط صدر الدين . ورأيت هناك كتاب روح القدس لابن العربي عليه سماعات بخطه

من بعد الصفحة الرابعة والستين. فيكون المعنى أنني أنا ورفاقي بقينا عاكفين على التحقيق إلى النهاية

لو أنصفوني كما قلت لكفوني مؤونة كتابة هذا التعليق الذي اضطررت إلى نشره في (الرسالة) خدمة للأدب العربي وتاريخه ومؤلفاته ، وتفادياً من أن يقوم (محمود مصطفى ثان) فيناقش الطبعة الدمشقية الحساب . ويحملني تبعة أغلاطها من الباب إلى المحراب

(دمشق) المغربي

وكتباً أخرى عليها خطه ، منها الأحكام الكبرى والصغرى لعبد الحق الأشبيلي وهما في فقه الحديث ، وقد أهداه محيي الدين للصدر القونوي . ورأيت فيها تفسير ابن برّجان الأندلسي .

ورأيت من مؤلفات الصدر الأجوبة النصيرية كتبها إجابة لخمسين سؤالاً سأله عنها نصير الدين الطوسي ، وهي تشهد بتمكن الصدر من العلوم والفلسفة

ورأيت في مكتبة السلطان سليم في قونية كتاب ابن ولاد بخط أحد علماء صقلية كتب سنة ٣٠٨ . اهـ

وعرضت على الشيخ العلاّمة نسخة عندي من كتاب المثنوي عليها أبيات كتب تحتها أنها بخط عبد الرحمن الجامي . فقال : لا شك أن هذا خط الجامي، أنا أعرف خطه ، رأيته على كتب كثيرة وخطه جيّد . ومن العلماء حسني الخطّ الخيالي صاحب حاشية العقائد ، وملاّ خسرو صاحب الدرر . وقد رأيت له كتاب المرآة في الأصول بخطه ، وعضدُ الدين ، والنووي ، وقد رأيت قطعة من شرح البخاري بخطه . وأنا أقلد خط النووي

ومن أحسن الناس خطاً الحافظ الصدفي المرسي مُسند الأندلس على الإطلاق ، وابن عاصم صاحب العاصمية التي كان يحكم بها عامة قضاة الأندلس والمغرب .

ثم انساق الحديث إلى الملك المعظم الأموي فقال إنه كان أعلم بني أيوب له شرح على الجامع الكبير كان أعلم من صلاح الدين مع مكانة صلاح الدين في العلم ، وإنه كان يعد في درجة النووي أو فوقه . يقال إنه كان يحفظ التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي في فقه الشافعي . وأبو اسحاق شيخ مذهب الشافعية في العراق وإمام الحرمين شيخه في خراسان .

وكان المعظم يُجل ابن قدامة ويقوم له إن أدخل عليه وما كان يقوم لسيف الدين الأموي صاحب الأحكام لاشتغاله بالفلسفة ، وكان من درجة فخر الدين الرازي — ثم قال :

وكان الفخر ذا مكانة عظيمة عند خوارز شاه وبسببه رحل بهاء الدين والد جلال الدين الرومي عن خراسان

قلت : أرأيت لابن تيمية طعناً في جلال الدين ؟ قال : نعم طعن فيه وفي الفخر وقال لو أدركت الفخر لضربته بهذا القضيب قلت : قال ابن بطوطة إنه حضر ابن تيمية في دمشق وهو على المنبر يتكلم في نزول الله تعالى إلى السماء وقال : نزل كنزولي هذا (ونزل درجة من المنبر) .

قال : إن ابن بطوطة لم يدرك ابن تيمية . والتحريف في الكتب كثير ولا يعوّل المتثبّت إلا على النسخ الصحيحة . إن أكمل الدين البابردي وعليّا القاريء شرحا الفقه الأكبر لأبي حنيفة . واعتمدا على نسخة محرّفة جاء فيها : « وأبواه صلى الله عليه وسلم ماتا على الكفر » . والعبارة الصحيحة : « ماتا على الفطرة » . والبابردي هذا شيخ السيد الشريف الجرجاني وتلميذ شمس الأئمة الأصفهاني الذي يقول بجواز الدور والتسلسل في الأمور العقلية وكثيراً ما يقع العلماء في الأوهام . ألا ترى صاحب الكشاف كيف يروي خرافات إرَم ذات العماد ؟ ...

ثم قال : إن الزمخشري أكثر الأخذ من كتاب الحجة لأبي علي الفارسي وكتاب الزجّاج في القراءات ومن تهذيب الأزهري وقد عكف عليه ثماني سنين في مدينة مرو ، ومنه أخذ كتابه الفائق ولم يصرح بهذا

ثم تكلم الشيخ على المتقدمين والمتأخرين من الفقهاء، وذكر الطحاوي من فقهاء الحنفية وأثنى عليه كثيراً وقال : إن قبر الطحاوي في القرافة وعليه قبة . وذكر قاضيخان وقال : رأيت إجازة بخطه دلت على ضعفه في العربية . ثم ذكر من المتأخرين ابن نجيم صاحب البحر وتلميذه الحصكفي والشرنبلالي تلميذ الحصكفي وقال: إن سبب شهرتهم أن قضاة العسكر كانوا يستفتونهم كثيراً، وكان خاتمة هؤلاء المفتين الرملي صاحب الفتاوى

ثم تكلم عن كتب المتقدمين فذكر شرح القدوري ؛ قال : رأيت نسخة منه عليها خط الحصكفي . وتكلم عن كتاب المبسوط لمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وقال : هو ثلاث روايات : رواية أبي بكر خواهر زاده ويسمى المبسوط البكري ، ورواية الجوزجاني ورواية الحلواني . قال : وأما مبسوط السرخسي فهو شرح كافي الحاكم الشهيد الجامع لكتب محمد بن الحسن . قلت : يقال إن السرخسي أملى المبسوط وهو في السجن . قال : الذي أعرفه أن السرخسي ألف كتاب الأصول في قلعة أوزجند ، وقد رأيت نسخة منه بخط العلامة الكردلي شيخ البزاز أولها : قال السرخسي في زاوية من حصار أوزجند . اهـ

« الكلام صلة »

عبد الوهاب عزام

خليل مردم بك

وكتابه في الشاعر الفرزدق

لأستاذ جليل

يقول الأستاذ : « وقد يداخل (الفرزدق) في كلامه ويعاظل في تراكيبه ، ويقدم ويؤخر ويتجوز في استعمال الوحشي والغريب والإقواء ، وما هو أشبه باللحن ؛ وذلك لثقته بنفسه واعتماده على سليقته ولقساوة في طبعه . قال كردين : (سقطُ الفرزدق شيء يمتحن الرجال فيه عقولهم حتى يستخرجوه) . سمعه ابن أبي إسحق الحضرمي مرة ينشد :

وعضٌّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقال له ابن أبي إسحق : « على أي شيء ترفع أو مجلف ؟ قال : على ما يسوءك وينوءك[1] ... »

والبيت (المجلف) من شواهد الكشاف في مكانين : « فشربوا منه إلا قليلاً منهم . وقرأ أبيّ والأعمش إلا قليل بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل من علم العربية ؛ فلما كان معنى فشربوا منه في معنى فلم يطيعوه حمل عليه كأنه قيل فلم يطيعوه إلا قليل منهم ، ونحوه قول الفرزدق (لم يدع من المال إلا مسحت[2] أو مجلف) كأنه قال : « لم يبق من المال إلا مسحت أو مجلف » وقال في سورة طه : « قرئ (فيسحتكم) والسحت لغة أهل الحجاز ، والإسحات لغة أهل نجد وبني تميم ، ومنه قول الفرزدق (إلا مسحتا أو مجلف) في بيت لا تزال الركب تصطك في تسوية إعرابه ... »

(١) أصله من المثل : (ترك ما يسوءه وينوءه) قال الميداني : « كان المحبوبي ذا يسار فلما حضرته الوفاة أراد أن يوصي فقيل له : ما نكتب ؟ فقال : اكتبوا : ترك فلان بعني نفسه ما يسوءه وينوءه ما لا يأكله ورثته ويبقى عليه وزره » أراد يسوءه ويثيقه أي يثقله وقال ينوءه لأجل يسوءه قال الصحاح : ليزدوج الكلام كما يقال إني لآتيه الغدايا والعشايا والغداة لا تجمع على غدايا

(٢) يروى مسحت بالرفع والنصب

وفي (الخصائص) : « قولهم ودع الشيء يدع إذا سكن فاتدع متبوع متبع ، وعليه أنشد بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحت أو مجلف

فمعنى لم يدع بكسر الدال لم يثبت ، والعائد منها إليه محذوف للعلم بموضعه وتقديره لم يدع فيه ، وهذا أمر ظاهر »

وأورد الأستاذ أمثلة مما أشار إليه كردين ، وشغلت به الأئمة في القديم ، وقد اجتزأنا نحن من تلك الدواهي بواحدة ...

* * *

الفرزدق هو — كما قال الأستاذ — في « صحة اللغة وفصاحة الأسلوب » وقد رويت القول من قبل . وأشعار أبي فراس مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ ، وأبياته في المصنفات اللغوية هي من أوائل الشواهد . فلو رجع إليها الفاضل عبد الله الصاوي الذي (عني بجمع ديوان الفرزدق وطبعه والتعليق عليه) في شرح (الأوابد) في بيت الفرزدق :

لن تدركوا كرمي بلؤم أبيكم وأوابدي بتنحل الأشعار

ما كان قال : « شبه القصائد بأوابد الوحش » . وأوابد الوحش نُفّرها ، ومثل هذا الشرح يذل البيت ويزيغ القارئ — فلو رجع إلى اللسان والأساس لوجد الأول يقول : « يقال للشوارد من القوافي أوابد . قال الفرزدق : لن تدركوا ... وقافية شرود عائرة سائرة في البلاد » ووجد الثاني يقول : « أوابد الشعر التي لا تُشاكل جودة قال الفرزدق : لن تدركوا ... » وفي الصحاح : « يقال للشوارد من القوافي أوابد قال الفرزدق : لن تدركوا ... » وفي التاج : « الأوابد القوافي الشرد مجاز . قال الفرزدق : لن تدركوا ... »

ولو رجع العلامة اللغوي المشهور الشيخ إبرهيم اليازجي إلى كتب الأدب واللغة ما كان قال في مجلته (الضياء) السنة (٣) الصفحة ٤٨٥ — : « قال الفرزدق :

والشيب ينهض في الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهارا

أراد بقوله يصيح صيغة المتعدي من قولهم انصاح القمر ، فنقل المعنى إلى النهار كما قال البديع : فلما انصاح النهار بجانب ليلي ، ثم